الدولة العباسية ومراكز القوى

في عهد المقتدر بالله

٢٩٥ - ٣٢٠ هـ

د. حامد غنيم سعيد

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

بكلية العلوم الاجتماعية

١ – مسح سريع :

مراكز القوى هي تلك الجماعات التي تساعدها ظروف معينة على أن تشكل من ذاتها قوة سياسية أو عسكرية ، أو سياسية عسكرية ، ومع مرور الزمن ومساعدة الظروف تصل القوة المتزايدة بهذه الجماعات إلى حد تشكل معه خطراً لايمكن تجاهله على السلطة الشرعية ، وهي السلطة التي تمثل النظام ، ويقودها ويوجهها كبير هذا النظام .

وبالنسبة للدولة العباسية فإن مراكز القوى قد تكرر ظهورها فيها أكثر من مرة حتى غدت وكأنها واحدة من الظواهر الأساسية في تاريخها . ومن نظرة سريعة على ماضي الدولة العباسية نجد أنها قد حملت مع تأسيسها نواة مركز للقوة سرعان ما تضخم وأخذ يشكل درجة عالية من الخطورة على السلطة الشرعية في الدولة وعلى رأسها الخليفة العباسي . تكون مركز القوة هذا من القائد أبي مسلم الخراساني ومعه القوات الفارسية التي كانت تعمل تحت قيادته ، وقد سجل التاريخ للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور أنه عاجل الزعيم الخراساني وقضى عليه في سنة ١٣٧ هـ وقبل أن تصل قوته إلى حد يستحيل معه احتواؤها أو السيطرة عليها[١] .

وأعاد التاريخ نفسه في عهد هارون الرشيد ، حفيد المنصور ، فقد شكل البرامكة في داخل الدولة العباسية آنذاك مركزا خطيرا من مراكز القوة ، أو دولة في داخل الدولة كما يقول أحد المؤرخين[٢] . وقد وصل الأمر بطغيان قوة البرامكة أن أصبح الخليفة العباسي معهم وكأنه قد فقد السيطرة تماما على أزمة الأمور ، غير أن هارون الرشيد ، وفي الوقت المناسب ، تمكن من القضاء ، بحزم وبقوة ، على أسرة البرامكة

(١) تاريخ خليفة بن خياط حـ٢ ص ٤٤٢ .

(٢) أبو الفرج الاصفهاني ، الأغاني حـ٤ ص ٣٩ .

وقوتهم التي حجبت ، ولعدة سنوات ، القسم الأكبر من فاعليات السلطة الشرعية في الدولة العباسية .

وبعد الرشيد ، ومع الصراع الذي احتدم بين الأخوين ، الأمين والمأمون ، أخذ يتكون مركز جديد للقوة ، وقد تجسد هذا المركز الجديد في آل سهل الفرس الذين تبنوا قضية المأمون في صراعه ضد أخيه الأمين ، وقد انتهى الصراع بين الأخوين بانتصار المأمون ، وأيضاً وفي الوقت نفسه ، باستفحال قوة آل سهل حتى غدواهم أصحاب دولة المأمون ، ربما أكثر مما كان عليه الحال بالنسبة للبرامكة مع الرشيد .

غير أن المأمون ، الذي كان بمثابة الأسير في قبضة آل سهل ، قد تمكن ، في الوقت والمكان المناسبين ، من القضاء على رأس هذا المركز من مراكز القوة ، الفضل ابن سهل ، كما تمكن أيضا ، وبطريقة مختلفة تماما ، من احتواء أخيه الحسن بن سهل[1] وبهذا أعاد المأمون إلى السلطة الشرعية سيطرتها القوية على أمور الدولة العباسية ومقدراتها .

وللحقيقة فإن المهمة بالنسبة للمأمون كانت أكثر صعوبة منها بالنسبة لأبيه الرشيد وجده المنصور ؛ فقد واجه كل منهما مركزا له ركيزة واحدة من ركائز القوة ؛ الركيزة العسكرية بالنسبة لأبي مسلم الخراساني ، والركيزة السياسية بالنسبة للبرامكة . أما آل سهل فقد قامت قوتهم على الركيزتين معا ، وقد انعكست هاتان الركيزتان في اللقب الذي أطلق على الفضل بن سهل ، أعني ذا الرياستين ، رياسة السيف ورياسة القلم ، أو الرياسة العسكرية والرياسة السياسية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد تصدى كل من المنصور والرشيد لمركز القوة المناوىء له وهو في عاصمته وموطن قوته وبين أنصاره ومؤيديه ، أما المأمون

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط حـ٢ ص ٥٠٩ ، تاريخ الطبري جـ ٨ ص ٥٦٤ — ٥٦٦

فقد تصدى للفضل بن سهل بعيدا عن عاصمة العباسيين ، بل وفي منطقة ولاؤها لآل سهل أكثر منه للخليفة المأمون[1] .

* * *

على أية حال ، فقد نجح المأمون في القضاء على آل سهل الذين كانوا يمثلون الحلقة الأخيرة في سلسلة مراكز القوة الفارسية ، ونتيجة لهذا النجاح تحررت السلطة الشرعية في الدولة العباسية لعدة سنوات من ضغوط مراكز القوى ، غير أن الظروف وفي الوقت نفســه ، فتحت الطريق أمام عناصر جديدة لتحل محل العناصر الفارسية في تشكيل مراكز قوى ، والعناصر الجديدة جيء بها أساساً لتملأ الفراغ العسكري الذي برز في الدولة العباسية نتيجة لإزاحة الجماعات الفارسية ، تلك هي العناصر التركية التي أخذ أفرادها يظهرون في الدولة إبان السنوات الأخيرة من عهد المأمون ، وقد تزايد عدد الأتراك بصورة صارخة في عهد أخيه وخلفه المعتصم بالله (٢١٨ — ٢٢٧هـ) غير أنهم لم يشكلوا آنذاك خطرا على السلطة الشرعية ، وذلك لأن الخليفة نفسه كان قويا ، واستطاع أن يوجه الجنود الأتراك إلى سلسلة من الأعمال الحربية استوعبت كل أوجل طاقتهم .

وكان عهد الخليفة الواثق بالله (٢٢٧ — ٢٣٢) الفرصة التي حانت أمام الأتراك لكي يتغلغلوا في شئون الدولة لدرجة أن القسم الأكبر منها مع نهاية عهد هذا الخليفة كان أصبح في قبضتهم . وجاء المتوكل على الله إلى الخلافة في سنة ٢٣٢ ، وكانت أخطر قضية واجهته هي كيفية استرداد السلطة الشرعية للنفوذ من قبضة العناصر العسكرية المتسلطة ، وفي سبيل هذه الغاية خاض المتوكل على الله سلسلة من الصراع

---

(١) في سنة ٢٠٢ هـ وبينما كان المأمون في طريقه من مرو إلى مدينة بغداد ، قتل الفضل بن سهل في إحدى ليالي شهر شعبان ، وعلى مقربة من مدينة سرخس ، وذلك بإيعاز من المأمون ، أنظر تاريخ خليفة بن خياط حـ٢ ص ٥٠٩ ، الطبرى جـ ٨ ص ٥٦٥ ؛ وتاريخ ابن الأثير حوادث سنة ٢٠٢ هـ .

السافر والمقنع ضد العناصر المتسلطة من الأتراك . وفي النهاية ذهب الخليفة نفسه ضحية الغاية التي كافح طويلا من أجل الوصول إليها[1] .

وهذا يعني أن الخليفة المتوكل قد أخفق فيما سبق أن نجح فيه أسلافه المنصور والرشيد والمأمون ، ألا وهو تحرير السلطة الشرعية في الدولة العباسية من تسلط مراكز القوى التي لم يكن لها أن تمارس تسلطها إلا على حساب هذه السلطة ، ويتساءل الباحث عن السر في هذا التباين ، وهل يعود إلى أمور تتصل بمراكز القوى ، أم إلى أوضاع ترتبط بالسلطة الشرعية في الدولة ، أم إلى مجموعة من الاعتبارات ترتبط بالجانبين ؟ .

وعلى أية حال ، فإن مقتل المتوكل بأيدي العناصر التركية كان بمثابة البداية لفترة من تسلط الأتراك واستبدادهم بأمور الدولة العباسية وقد استمرت هذه الفترة حوالي عشرة أعوام[2] ، ثم أخذت الصورة وبالتدريج تعود إلى قريب من حالتها السابقة ، الحالة التي كانت الدولة العباسية أثناءها محررة من تسلط مراكز القوى ،

وقد استغرق هذا التطور عهد المعتمد على الله الذي قارب ربع قرن من الزمان (٢٥٦ – ٢٧٩) ثم اكتملت ملامحه بشكل كبير في عهدي المعتضد بالله (٢٧٩ – ٢٨٩) والمكتفى بالله (٢٨٩ – ٢٩٥) وخيل للبعض وكأن الدولة العباسية أخذت تنطلق على الطريق السليم ، طريق تحرر السلطة الشرعية من تسلط مراكز القوى ، ولكن التطورات أثبتت أن هذا التخيل كان إفراطا في التفاؤل ، إذ أن الدولة العباسية في عهد المقتدر بالله لم تقف انتكاساتها عند حد تضييع الإيجابيات التي تحققت لها في السنوات السابقة ، بل أنها تجاوزت ذلك ووصلت في طريق الانهيار إلى نقطة لم يعد في الإمكان الرجوع عنها .

---

(١) للمزيد عن الصراع الذي دار بين المتوكل من ناحية وزعماء الأتراك من ناحية ثانية أقرأ الطبري حـ ٩ ص ١٦٩ ؛ ٢١٠ ؛ ٢٢٢ ؛ المسعودي ، التنبيه والإشراف ص ٣١٣ ؛ مروج الذهب حـ٤ ص ٣٢ – ٣٨ .

(٢) من سنة ٢٤٧ إلى ٢٥٦ ، وقد تعاقب على منصب الخلافة في هذه الفترة أربعة من الخلفاء هم المنتصر بالله (٢٤٧ – ٢٤٨) والمستعين بالله (٢٤٨ – ٢٥٢) والمعتز بالله (٢٥٢ – ٢٥٥) وأخيراً المهتدي بالله (٢٥٥ – ٢٥٦) .

٢ ــ السلطة الشرعية :

ونبدأ من شهر ذى القعدة سنة ٢٩٥هـ ، وعلى وجه التحديد من يوم السبت الثاني عشر من الشهر المذكور ، ففي هذا اليوم ، وبعد وفاة المكتفي بالله ، بويع جعفر بن المعتضد بالله بالخلافة ، وكان عمر الخليفة الجديد يزيد قليلا على ثلاثة عشر عاما[١] ، وهي المرة الأولى في تاريخ الدولة العباسية التي يبايع فيها صبي في مثل هذا السن بالخلافة ، وإلى جانب منافاة مثل هذا التصرف للتقاليد العباسية السابقة ، فإنه أيضا لايتفق مع الأسس والشروط الدينية المستمدة من الإسلام ، وعلى الرغم من هذا وذاك فقد تأكدت خلافة المقتدر بالله ، بل وتغلبت على العديد من التحديات التي واجهتها .

ولعل من أبرز عوامل نجاح خلافة المقتدر بالله وصمودها في مواجهة التحديات لمدة ربع قرن ، وهي مدة لم يتمتع بها خليفة عباسي من قبل ــ أقول : لعل من أبرز عوامل النجاح والصمود لخلافة المقتدر بالله ما يمكن أن يقال من أنها ، وهي السلطة الشرعية ، كانت تستمد قوتها من مركز كبير للقوة في داخل الأسرة العباسية ، وهو المركز الذي كان يمثل أولاد المعتضد بالله .

ففي داخل الأسرة العباسية كانت توجد جماعات متنافسة ، ومحور التنافس هو منصب الخلافة ، أما أهم هذه الجماعات وأقواها وأبعدها تأثيرا فهي تلك الجماعة التي كانت تمثل أولاد المعتضد بالله ، وكان على بن الغرات يعرف جيداً مقدار قوة هذه الجماعة ، ومن ثم فإنه قال للوزير العباس بن الحسن في تبرير ترشيحه جعفر بن المعتضد لمنصب الخلافة ، مع ما في ذلك من منافاة للتقاليد العباسية وإخلال بالقواعد الشرعية : « إلا أنه ابن المعتضد »[٢] .

وجذور تكون هذا المركز من مراكز القوة داخل الأسرة العباسية تعود إلى الفترة

---

(١) مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ٢ ــ ٤ ؛ ابن الأثير حـ ٨ ص ١٠ .
(٢) مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ٣ ؛ ابن الأثير حـ٨ ص ١٠ .

التي كان يتولى الخلافة فيها المعتمد على الله ، فقد برزت مع السنوات الأولى من عهده شخصية أخيه الموفق ، وسرعان ما أصبح نفوذ الموفق يفوق بكثير نفوذ أخيه الخليفة[1] وكان للموفق أنصاره ولأسرة الموفق أنصارها ، وذلك في مقابل أنصار المعتمد على الله وأنصار أسرته ، وكانت قوة الأولين تفوق بكثير قوة الأخيرين ، وبتأثير علاقة القوة بين الجانبين صار ابن الموفق ، أبو العباس أحمد ، بعد وفاة أبيه ، ولي عهد عمه المعتمد على الله ، وذلك على حساب ابن الخليفة وولي عهده الذي كان يحمل لقب المفوض إلى الله ، ونتيجة لهذا التطور صار أبو العباس أحمد خليفة الدولة العباسية بعد وفاة عمه المعتمد على الله ، وذلك تحت لقب المعتضد بالله[2] .

هذه هي المرة الأولى في تاريخ الدولة العباسية التي يحدث فيها مثل هذا التغيير أو الانقلاب السلمي ، وقد تم ذلك بفضل القوة القاهرة التي كان يتمتع بها المعتضد بالله الذي شكل ومعه أنصاره مركزا للقوة داخل الأسرة العباسية أضحى في مقدوره أثناء الشهور السابقة على توليه الخلافة أن يحرك الأحداث ويوجهها الوجهة التي تخدم أغراضه في مواجهة الجماعات الأخرى داخل الأسرة العباسية .

ونسير مع الزمن حتى وفاة المعتضد بالله في ربيع الثاني سنة ٢٨٩ ، فقد ظهرت آنذاك فكرة الابتعاد بمنصب الخلافة عن ولد المعتضد بالله ، غير أن هذه الفكرة وئدت في مهدها ، والفضل في ذلك يعود إلى النفوذ الكبير الذي كان يتمتع به أبناء المعتضد بالله كمركز للقوة داخل البيت العباسي ؛ النفوذ الكبير الذي كان بدر ، قائد الجيش ، آنذاك واحدا من أعمدته الأساسية ، وقد قال بدر لمن فاتحه في نقل الخلافة عن فرع المعتضد : « ماكنت لأصرفهما عن ولد مولاي وولي نعمتي[3] » وهكذا تم الأمر للمكتفي بالله ابن المعتضد بالله .

---

(١) عن النفوذ في الدولة العباسية بين المعتمد والموفق اقرأ ابن الأثير حـ٧ ص ٤٥٥ ؛ وابن خلدون حـ٣ ص ٢٣١ ، ٢٤٦ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ص ٢٥٠ .

(٢) عن هذه التطورات اقرأ الطبري حـ ١٠ ص ٢٢ — ٢٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب حـ ٤ ص ١٣٩ — ١٤١ ؛ ابن الأثير حـ٧ ص ٤٥٢ .

(٣) ابن الأثير حـ٧ ص ٥١٧ .

ومرة أخرى ، وعند وفاة المكتفي بالله في ذى العقدة سنة ٢٩٥ ، لعب مركز القوة الممثل لأسرة المعتضد دوره في الإمساك بناصية التطورات ، وكانت النتيجة هي الإتيان بجعفر بن المعتضد ، رغم صغر سنه ، إلى منصب الخلافة تحت لقب المقتدر بالله . وتفيد المصادر التاريخية أن الوزير العباس بن الحسن ، وبعد أن تمت البيعة للمقتدر ، أراد أن يغير موقفه ، ويأتي إلى المنصب بشخص آخر ، وكان هذا الآخر هو محمد بن المعتمد على الله ، وتفيد المصادر أيضا أنه قد اتخذت بعض الخطوات من أجل إحداث هذا التغيير ، غير أن الوزير لم يكن بإمكانه الإقدام على هذا التغيير دون الاستناد إلى قوة حربية ، وتطلع الوزير إلى بارس حاجب الأمير الساماني والذي كان في طريقه آنذاك إلى العاصمة العباسية ، وأمل الوزير من بارس أن يقف إلى جانبه في إحداث هذا التغيير ، أو كما تقول المصادر التاريخية : « يتقوى به على غلمان المعتضد »[1] .

ونتوقف قليلا عند هذه العبارة الموجزة : « يتقوى به على غلمان المعتضد » فإنها تفيد بوضوح أن غلمان المعتضد كانوا القوة الأساسية ، أو يشكلون واحدة من القوى الأساسية ، التي تمسك بزمام الأمور في الدولة آنذاك ، وأنهم كانوا يستخدمون قوتهم في صالح أبناء المعتضد ، وليس أخطر من الخلافة مصلحة تتصارع حولها القوى وتتقاتل في سبيلها الجماعات .

ثم نتوقف قليلا أيضاً عند محمد بن المعتمد وما حدث له عقب ذيوع فكرة الإتيان به إلى منصب الخلافة فالمصادر تفيد أنه في ذلك الوقت وقع بينه وبين ابن عمرويه ، صاحب الشرطة ، خلاف ، وأن صاحب الشرطة تطاول عليه فغضب محمد ابن المعتمد غضبا شديداً وأغمى عليه وفلج في المجلس فحمل إلى بيته في محفة فمات في اليوم التالي . مات الرجل المرشح ليحل محل المقتدر ، ولكن الفكرة لم تمت

---

(١) عريب بن سعد ، الصلة ص ٢٠ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم حـ ١ ص ٤ — ٥ ؛ ابن الأثير حـ ٨ ص ١١ ، ابن خلدون حـ٣ ص ٧٥٣ — ٧٥٤ .

لدى الوزير العباس بن الحسن فأراد البيعة لأبي الحسين بن المتوكل ، ولكنه هو الآخر مات بعد خمسة أيام ، ونتيجة لذلك تم أمر المقتدر [١] .

تقدم المصادر التاريخية المعلومات السابقة ببساطة بالغة ، بيد أن الباحث الذي لديه بعض الإلمام بأساليب الصراع داخل الأسرة العباسية وأسراره لايسعه إلا أن يتوقف مليا أمام هذه الأحداث ، ويثور لديه أكثر من علامة استفهام حول طبيعة وفاة هذين الرجلين ، وكل منهما كان الوزير يرشحه ليحل محل المقتدر بالله في منصب الخلافة ، وأحدهما ابن المعتمد والثاني أخوه ، والمعتمد على الله هو الخليفة الذي توفى في شهر رجب سنة ٢٧٩ ، وإثر وجبة طعام تناولها مع بعض الملازمين له فأودت به كما أودت بمشاطريه من الملازمين [٢] .

وقفنا مليا تجاه هذه الأحداث ، وثارت في الذهن عدة تساؤلات ، وعادت بنا الذاكرة إلى أحداث أخرى وقعت قبلها بحوالي سبعة عشر عاما . والآن نواصل الحديث فنقول : إن مركز القوة الممثل لأبناء المعتضد بالله داخل الأسرة العباسية والذي تمتع بكل هذا النفوذ والتأثير كان يستمد قوته من عدة فئات من أهمها الغلمان ، وقد سبقت الإشارة إليهم على لسان الوزير العباس بن الحسن ، وعرفنا من هذه الإشارة أنهم كانوا يشكلون قوة من الصعب على الوزير التصدي لها ، ومن ثم فإنه علق مشروعه على قوة عسكرية تكون أداته في تنفيذه .

ومزيد من الضوء على هؤلاء الغلمان نجده لدى الصابي الذي يقول إن عددهم في عهد المكتفي بالله وصل إلى عشرين ألف غلام ، وكانوا يلازمون دار الخلافة ويتؤلون حماية الخليفة .

وإلى جانب الغلمان ، أو الغلمان الدارية كما كانوا يعرفون ، كانت توجد ثلاث مجموعات أخر ، كل منها شكلت في ذاتها قوة لايستهان بها ، أفراد المجموعة

---

(١) المصادر السابقة ، وأنظر أيضاً الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري حـ١ ص ٤ .
(٢) المسعودي ، مروج الذهب حـ٤ ص ١٤١ — ١٤٢ .

الأولى هم المعروفون بالمماليك الحجرية ، وهم أصلا مماليك المعتضد بالله ، وكان عددهم آنذاك يقدر بالألوف ، أما وظيفتهم فهي المقام في قصر الخلافة للحراسة . والمجموعة الثانية عرف أفرادها بالرجالة المصافية ، وهم المحاربون من رجالة وخيالة وكانوا أيضاً يلازمون دار الخليفة ، وكانوا يقومون بوظيفتهم في شكل نوبات ، وعدد أفراد النوبة الواحدة يصل إلى خمسة آلاف .

وإلى جانب المجموعات السابقة والتي كانت مهام البعض منها الحراسة والبعض الآخر القتال كان يوجد بدار الخلافة أيضاً حوالي عشرة آلاف خادم ، من السود والصقالبة[1] وعلى هؤلاء جميعا تشكل مركز القوة الممثل لأبناء المقضد بالله ، وكان هذا المركز ، كما تبين لنا في الصفحات السابقة ، أكثر مراكز القوة تأثيرا وفاعلية داخل الأسرة العباسية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الجيش العباسي ، كان بمثابة الجناح الثاني لقوة أبناء المعتضد . وقد حرص المعتضد بالله والمكتفى بالله من بعده على أن يكون قائد الجيش تحت السيطرة الكاملة لهما ، ولم يكن لهذا المستوى من السيطرة أن يتحقق إلا من خلال الإخلاص التام لشخص الخليفة ، وكان هذا المستوى من الإخلاص متحققا لدي (بدر) مع المعتضد بالله ، ولدي (فاتك) مع المكتفي بالله .

* * *

هذا هو المركز الأساسي للقوة داخل الأسرة العباسية ، وفي داخل الأسرة العباسية أيضاً كانت توجد جماعات أخر تختلف في الرأي مع الآراء التي كان يتبناها أصحاب المركز الأساسي ، وخاصة فيما يتصل بمنصب الخلافة ، وقد وصلت القوة ببعض هذه الجماعات إلى حد شكلت معه مايمكن أن نسميه مركزا للقوة مع بعض التحفظات .

---

(١) هلال بن المحسن الصابي ، الوزراء ص ١٥ — ١٧ ؛ رسوم دار الخلافة ص ٨ — ٩ .

وقد سبقت الإشارة إلى محمد بن المعتمد كمرشح للخلافة بدلا من المقتدر بالله ، والذي نود أن نضيفه هنا هو أن هذا الترشيح كان على ما يبدو يعكس اتجاها محدداً تبنته جماعة من الجماعات داخل الأسرة العمباسية . صحيح لم أجد في المصادر التاريخية مايلقى شيئا من الضوء على الفكرة السياسية الأساسية في هذا الاتجاه ولكن من الممكن القول بان هذه الفكرة تدور حول إعادة الحق في الخلافة إلى ذويه ، أي إلى واحد من أبناء المعتمد ، والمعتمد على الله هو الخليفة الذي أرغم على نقل ولاية العهد من ابنه إلى ابن اخيه الموفق ، والذي صار الخليفة من بعد تحت لقب « المعتضد بالله » ومع هـــذه الفكرة الأساسية فإن محمد بن المعتمد ، ومن ناحية شخصية خالصة ، كان يتحلى بصفات تؤهله للمنصب ، إذ « كان حسن السيرة جميل الوجه والفعل » أو « حسن الفعل جميل المذاهب »[1] .

وإلى جانب هذه الجماعة العباسية وفكرتها السياسية كانت تؤجد جماعة أخرى على رأسها عبد الله بن المعتز ، والمعتز هذا خليفة قتله الأتراك في سنة ٢٥٥ بعد أن حملوه على خلع نفسه من الخلافة ، وهو أيضا واحد من إخوة الخليفة المعتمد ، أما الفكرة الأساسية التي كانت محور التقاء هذه الجماعة فقد قدمها لنا الوزير أبو الحسن علي بن الفرات ، وذلك في قوله شارحا للوزير العباس بن الحسن وجهة نظره في الابتعاد بمنصب الخلافة عن عبد الله بن المعتز ، فقد قال[2] « وهو (أي عبد الله ابن المعتز) يعتقد أن الأمر (أي الخلافة) كان له ولأبيه وجده ، وأنه مظلوم منذ قتل أبوه ، مهضوم مقصود مضغوط » .

كان لعبد الله بن المعتز أنصاره ، وكان هؤلاء الأنصار من القوة بحيث أنهم لم يقفوا مكتوفين وهذه التطورات المعاكسة تجري في داخل البيت العباسي ، ولذا فلم تكد تمض شهور أربعة على إسناد المنصب إلى المقتدر بالله حتى ثار أنصار عبد الله

---

(١) وردت العبارة الأولى في ابن الأثير جـ ٨ ص ١١ ، أما العبارة الثانية فقد وردت لدي مسكويه (تجارب الأمم جـ١ ص ٤) .

(٢) الصابي ، الوزراء ص ١٣١ .

ابن المعتز ، وفعلا تمت تنحية المقتدر بالله عن الخلافة ونصب مكانه عبد الله بن المعتز ولقب « المرتضي بالله » غير أن هذا الانقلاب لم يعمر سوى يوم واحد ، وعادت الأمور إلى تصابها من جديد . والفضل في عودة المقتدر بالله إلى الخلافة يعود إلى قوات القصر والمكونة من الغلمان والحجرية والمصافية ، فقد دفعتهم شدة ولأئهم لأبناء المعتضد بالله من ناحية ، وشدة حرصهم على التمسك بمواقعهم وما فيها من امتيازات من ناحية ثانية ، على أن يقوموا بمحاولة رافضة لعبد الله بن المعتز ، وقد ترتب على هذه المحاولة فشل الخليفة الجديد ، والعودة بالمقتدر بالله إلى منصب الخلافه(١) .

إن الأحداث التي شهدتها بغداد يومي السبت والأحد التاسع عشر والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٢٩٦ تقدم لنا صورة واضحة وقوية لصراع دموي دار بين اثنين من مراكز القوة داخل الأسرة العباسية ، المركز الأول هو ذلك الذي يمثل أبناء المعتضد بالله ، أما المركز الثاني فكان يعبر عن فكرة معارضة لأبناء المعتضد بالله ، وهي القول بخلافة عبد الله بن المعتز ، أما خاتمة هذه الأحداث فإنها تؤكد أن قوة المركز الأول كانت تفوق بكثير قوة المركز الثاني الذي كان أيضاً يتمتع بالكثيرين من الأنصار .

على أية حال فقد استقر الأمر من جديد للمقتدر بالله ، وفي سنة ٢٩٨ جعلت أم موسى الهاشمية قهرمانة دار الخلافة ، فكانت تؤدي الرسائل من المقتدر بالله وأمه إلى الوزير ، ويبدو أن هذه القهرمانة كانت لها تطلعاتها الكبيرة ، إذ أنها لم تقتصر في وظيفتها على أن تبقى مجرد حلقة اتصال بين الخليفة والسيدة والدته من ناحية ، والوزير من ناحية ثانية ، بل إنها تجاوزت ذلك إلى المشاركة الإيجابية في إدارة شئون الدولة ، وقد التفت ابن الأثير إلى خطورة أم موسى حين قال في مناسبة إسناد المنصب المذكور إليها(٢) « وإنما ذكرناها لأن لها فيما بعد من الحكم في الدولة ما أوجب ذكرها » .

---

(١) عن هذه التطورات بشيء من التفصيل اقرأ تجارب الأمم حـ ١ [ص ٦ — ٧ ؛ ابن الأثير حـ ٨ من ص ١٥ — ١٦ .
(٢) حـ ٨ ص ٦٢ .

وعبارة ابن الأثير هذه هادئه جدا ، إذ أن من يتتبع دور أم موسى في الدولة العباسية يتضح له أن هذه السيدة التي مكثت في منصبها اثنى عشر عاما ، أي حوالي نصف الفترة التي قضاها المقتدر بالله في الخلافة ، كانت تتمتع بنفوذ كبير في إدارة شئون الدولة العباسية ، نفوذ كبير يفوق بكثير نفوذ الوزراء الكبار [١] ويبدو أن هذه القهرمانة ، وبعد أن اكتسبت قوتها من صلتها الوثيقة بالخليفة ووالدته ، أخذت تعمل لحساب جماعة عباسية أخرى مناوئة لتلك التي كان على رأسها المقتدر بالله ، وكان محور تطلع هذه الجماعة هو منصب الخلافة التي لم يكن من سبيل إليه إلا عن طريق إبعاد المقتدر بالله ، أما الرجل المنافس فهو محمد بن اسحاق بن المتوكل الذي يقول عنه صاحب تجارب الأمم [٢] : « وكان من أولاد الخلفاء النجباء ، وكانت له نعمة حسنة ظاهرة ، وكان حسن المروءة واللبسة والدواب والمراكب ، وكان صديقاً لعلي بن عيسى حتى قيل إنه كان يرشحه للخلافة » . أما ابن الأثير فإنه يقول عنه [٣] : « وكان محسنا له نعمة ظاهرة ، ومروءة حسنة ، وكان يرشح للخلافة » .

عقدت أم موسى مصاهرة مع الزعيم العباسي المذكور ، وذلك بأن زوجته ابنة أخيها أبي بكر أحمد بن العباس ، وفي حفلات المصاهرة أسرفت أم موسى في الإنفاق إسرافا يفوق الحد ، مما فتح الباب للتقول عليها وأنها تسعى في إزالة المقتدر بالله عن الخلافة ، وتولية المذكور مكانه ، وكان هذا الاتهام سبباً كافيا في نكبة أم موسى بالقبض عليها وعلى أخيها وأختها ، ومصادرة أموالهم [٤] .

تتحدث بعض المصادر التاريخية عن ظروف الإيقاع بأم موسى وكأن ماقيل عنها لايعدو كونه مجرد اتهام ، أما البعض الآخر فإنه يكاد يوحي بوجود أساس من الحقيقة لهذه التهمة ، فقد واجهتها السيدة أم المقتدر بأن قالت لها [٥] : « قد دبرت على

---

(١) للمزيد عن نفوذ أم موسى في الدولة العباسية اقرأ عصر الخليفة المقتدر بالله ص ٨٥ — ٨٩ .
(٢) جـ١ ص ٨٣ .
(٣) جـ ٨ ص ١٣٧ .
(٤) مسكويه ، تجارب الأمم جـ١ ص ٨٣ — ٨٤ ؛ ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣٧ .
(٥) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٠٤ .

ولدي وصاهرت ابن المتوكل حتى تقعديه في الخلافة ، وتذكر رواية اخرى أن [1] « المقتدر اعتل فبعثت إلى بعض أهله ليقرر عليه ولاية الأمر »

والباحث لايستبعد أن يكون لهذا الاتهام أساس حقيقي ،وذلك لأن محمد بن اسحاق بن المتوكل ، المرشح للخلافة ، كان ينصف بالصفات التي تؤهله للمنصب المذكور ، وخاصة إذا ماقونت هذه الصفات بما كان يتصف به المقتدر من صفات متواضعة ، وإلى جانب ذلك فن المرشح من أبناء المتوكل على الله ، أي أنه يعتقد أنه صاحب حق في الخلافة لايقل عن حق عبد الله بن المعتز ، بل ولا يقل عن حق المقتدر بالله نفسه .

ويبدو أن الجماعة التي كانت أم موسى تعمل لحسابها قد أفادت من التجارب السابقة ، وأدركت أن أي عمل ضد المقتدر بالله لن تقدر له إمكانية النجاح مالم يعتمد على مساندة البعض من القادة الذين يعملون في خدمة المقتدر بالله ، ويساعدنا في هذا الاستنتاج ما ورد في صورة عابرة لدي كل من ابن الأثير وابن خلدون في ثنايا الحديث عن هذه القهرمانة وما يقال عن دورها في محاو ة الإتيان بمحمد بن اسحاق ابن المتوكل إلى الخلافة ، فقد قال الأول عنها : [2] « قد سعت لأبي العباس في الخلافة ، وحلفت له القواد » أما الثاني فإنه يقول عنها [3] : « وأنها استحلفت القواد وجعلتهم يلتفون حولها » .

وهذا الذي أشار إليه المؤرخان المذكوران يفيد أن خطة القوم كانت وببساطة تبدأ من نقطة محددة ، هي العمل على تغيير ولاء بعض القادة في القصر والدولة من الولاء لأبناء المعتضد بالله إلى الولاء للجماعة المناوئة ، وكانت أم موسى القهرمانة ، وهي التي أصبحت تعرف الكثير من أسرار ودقائق القصر والدولة ، هي الشخصية

---

(١) المنتظم حـ٦ ص ١٦٦ .
(٢) ابن الأثير حـ٨ ص ١٣٧ .
(٣) حـ٣ ص ٨١٤ .

المناسبة التي يمكنها إحداث هذا التغيير ، غير أن المهمة ، كما أثبتت الأحداث فيما بعد ، كانت أصعب بكثير مما تصور المخططون ، وتسربت بعض الأسرار إلى المقتدر بالله وأتباعه فتمكنوا من إجهاض هذه المحاولة المعادية قبل أن ترى النور .

هذه هي السلطة الشرعية في الدولة العباسية ، وهذه السلطة في الوقت نفسه كانت واجهة لأهم مركز للقوة داخل الأسرة العباسية ، ذلك هو المركز الذي كان يلتف حول مصالح أبناء المعتضد بالله ويدافع عنها . وقد اتضح لنا فيما سبق ، وفي دائرة العلاقات بين مراكز القوى داخل الأسرة العباسية ، أن هذا المركز قد نجح في الاحتفاظ بالسلطة الشرعية معه ، وفي سبيل الاحتفاظ بهذه السلطة ، أو الخلافة ، قضى هذا المركز على كل المحاولات التي قامت بها الجماعات أومراكز القوة الأخرى المناوئة ، ابتداء من محمد بن المعتمد ، وعبد الله بن المعتز ، . في أول عهد المقتدر بالله ، وانتهاء بالقهرمانة أم موسى الهاشمية وصاحبها محمد بن اسحاق بن المتوكل في سنة ٣١٠هـ[١] .

وفي موازين الأعمال فإن القدرة على الاحتفاظ بمنصب الخلافة للمقتدر بالله في مواجهة التحديات التي قامت ضده يعتبر إنجازا على جانب كبير من الأهمية لمركز القوة الممثل لأبناء المعتضد بالله داخل الأسرة العباسية ، وهذا الإنجاز يضاف إلى الإنجازات الهامة الأخرى التي سبق أن حققها هذا المركز ، فيشكل الجميع قائمة أعمال مركز القوة الخاص بالمعتضد بالله وأبنائه على مدى اثنتين وثلاثين سنة ، أي منذ الأحداث التي أتت بأبي العباس أحمد بن الموفق إلى ولاية العهد ثم الخلافة ، وحتى أحداث سنة ٣١٠ حيث تم التخلص من أم موسى القهرمانة والفكرة التي كانت تسعى لتحقيقها .

---

(١) تلتزم المصادر بالصمت عن مصير محمد بن اسحاق بن المتوكل ، ومن المرجح أنه ضيق عليه ، أو حددت إقامته ، كما كان يحدث عادة مع أمثاله من أبناء الأسرة العباسية .

٣ — مركز القوة السياسي :

السلطة الشرعية في الدولة العباسية ، والممثلة في الخلافة كانت تباشر مهامها وتطبق سياساتها ، وتفرض إراداتها من خلال جهازين رئيسين من أجهزة الدولة ؛ الجهاز السياسي وعلى رأسه الوزير ، والجهاز العسكري وعلى رأسه قائد الجيش ، وإذا كانت السلطة الشرعية في الدولة قوية ومرهوبة الجانب فإنها تبقى مهمينة على مختلف أجهزة العمل في الدولة ، بل ومحافظة أيضاً على العلاقات أو التوازن بين هذين الجهازين بصفة خاصة ، بحيث يبقى كل منهما في داخل الدائرة المحددة له ولا يطغى على الدائرة الخاصة بالجهاز الآخر ، وذلك لأن طغيان أحد الجهازين على الآخر يفتح الطريق إلى الطغيان على السلطة الشرعية نفسها ، وفي وصول التطورات إلى هذا الحد خطر كبير .

وفكرة التوازن هذه يراها أحد الباحثين من مبتكرات المنصور ، المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، وقد حمله على ذلك تعدد القوميات ، وخاصة العربية والفارسية ، داخل الدولة العباسية ، وبالإضافة إلى هذا التعدد فإن المنصور كانت له أيضا تجربته الشخصية مع الزعيم الفارسي أبي مسلم الخراساني ، من هذا وذاك نبعث فكرة المنصور في التوازن ، ولم يكن لهذا التوازن أن ينجح إلا إذا اقام على أساس من التوزيع فالوزارة للفرس وقيادة الجيش للعرب[١] .

ومن استقراء تاريخ الدولة العباسية نجد أن هذه الدولة كانت بخير طالما كان هذا التوزيع مع التوازن مرعيا ، كما أنها تعرضت للأخطار الجسيمة مع اختلال هذه المعادلة التنظيمية . وقد حدث هذا الاختلال بالفعل أكثر من مرة من أخطرها ماحدث حينما استبد البرامكة بكل شئون الدولة في عهد الرشيد ، وحينما انفرد آل سهل بدولة المأمون[٢] .

---

(١) للمزيد عن نظرية التوازن هذه اقرأ أثر الفرس السياسي في الدولة العباسية للدكتور على العمرو ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

(٢) للمزيد عن هذا الاختلا ل والطريقة التي عولج بها اقرأ الجهشياري ، الوزراء ص ١٥١ — ١٥٦ ، ٢٣٦ ؛ الطبري حـ ٨ ص ٢٨٧ وما بعدها .

ونتقل إلى الدولة العباسية في عهد المقتدر بالله فنجد أن الجهاز السياسي في دولته قد تعاقب عليه عدد من الوزراء من أهمهم ، من زاوية مراكز القوى ، الوزير ابن الفرات ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات ، مولده في سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وقد تقلد وزارة المقتدر بالله ثلاث مرات ، يزيد مجموعها قليلا على خمسة أعوام [1] ، وهذه المدة تساوي تقريباً خمس عهد المقتدر بالله الذي استغرق ربع قرن من الزمان .

وبنو الفرات أصلا من قرية تدعى بابلي صريفين من النهروان الأعلى ، ثم انتقلوا بعد ذلك للحياة في مدينة سر من رأي [2] ، وقد حدث هذا الانتقال ، على مايبدو ، في السنوات الأخيرة من عهد الخليفة المعتمد على الله ، وهي نفسها السنوات الأخيرة من العهد الزاهر لهذه المدينة ، العهد الذي كانت فيه حاضرة الدولة العباسية . وكان أبو الحسن بن الفرات أيام مقامه بسر من رأى يتردد هو وغيره من بني الفرات على مدينة بغداد ، وفي كل من المدينتين كانت لبني الفرات وجاهتهم ومكانتهم الاجتماعية المتميزة [3] .

وقد بدأت صلة ابني الفرات ؛ أبي العباس أحمد وأبي الحسن على ، بالعمل في خدمة الدولة العباسية في السنوات الأخيرة من خلافة المعتمد على الله ، وأول من ارتبط اسمه بخدمة الدولة هو أبو العباس أحمد ثم تبعه أخوه أبو الحسن على ، أما أول أعمالها فكان في إطار التبعية لإسماعيل بن بلبل ، وزير الخليفة المعتمد على الله ، والذي حاول في سنة ٢٧٨ أن يلعب دوراً ضد الموفق وابنه أبي العباس أحمد ، ولصالح

(١) مكث أبو الحسن بن الفرات في الوزارة الأولى ثلاث سنوات وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً . ومكث في الوزارة الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً ، أما الوزارة الثالثة والأخيرة فقد استغرقت فقط عشرة أشهر وثمانية عشر يوماً (أنظر مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ٢٠ ، ٥٦ ، ١٢٧ ؛ الصابي ، الوزراء ص ٣٣ – ٣٤ ؛ ٣٩ ، ٧١) ويختلف الصابي عن مسكويه بالنسبة للوزارة الثالثة التي وصلت فترتها عند الصابي إلى سنة .

(٢) الصابي ، الوزراء ص ١١ – ١٢ ، ١٦٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

المعتمد على الله ، غير أنه أخفق ، وجاء إخفاقه نتيجة ليقظة وإخلاص الموالين للموفق الذين تمكنوا من السيطرة على الأحداث في الوقت المناسب [1] ، وكان الموقف السابق من اسماعيل بن بلبل السبب الأول في النكبة التي لحقته في السنة نفسها ، وبعد أن تمكن أبو العباس أحبمد من أمور الدولة ، فقد فبض على اسماعيل بن بلبل وعلى أصحابه وانتهب منازلهم ، وكان أبنا الفرات ، بالطبع ، من بين الذين نكبوا مع نكبة الوزير [2] .

بعد ذلك أسند منصب الوزارة إلى أبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وظل هذا الوزير في منصبه حينما تولى المعتضد بالله الخلافة [3] ، وقد وجد هدا الوزير آنذاك صعوبة كبيرة في مواجهة الأزمة الاقتصادية التي كانت تعاني منأها الدولة العباسية ، فطلب من المعتضد بالله الصفح عن ابني الفرات كي يتسنى له الاستعانة بهما ، وفعلا اطلقا من الحبس وعهد إليهما بالمهمة الصعبة ، وقد نجح الأخوان في وضع ميزانية مؤقتة لنفقات الدولة ، ودبرا لها الموارد المالية اللازمة [4] .

كان نجاح الأخوين في التغلب على هذه العقبة الامتحان الذى اجتازاه إلى المجد والشهرة ، وقد تسلط الضوء في أول الأمر على أكبر الأخوين أبي العباس أحمد طوال الفترة التي كان الوزير فيها عبيد الله بن سليمان وتجمع المصادر التاريخية أن أبا العباس هذا كان واحد من أربعة يشتركون في إدارة دفة الحكم في دولة المعتضد بالله ، ويروى أن مشايخ الكتاب كانوا يقولون [5] : « إنه لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعضد بالله وأبي القاسم عبيد الله بن

---

(١) للمزيد عن هذه التطورات اقرأ الطبري حـ ٧ ص ١٥ وما بعدها ؛ المسعودي ، مروج الذهب حـ٤ ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(٣) الصابي ، الوزراء ص ١٢ .

(٣) ابن طباطبا ، الفخري ص ٢٥٦ .

(٤) الصابي ، الوزراء ص ١٢ — ٢٧ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

سليمان و أبي العباس بن الفرات وبدر ؛ فكان التدبير مع هؤلاء الأربعة مطردا والأمر منتظما والعمارة وافرة والأموال دارة » .

والديوان الذي وردت الإشارة إليه في النص السابق هو ديوان الدار ، وهو من مبتكرات أبي العباس بن الفرات ؛ يقول الصابي [١] : « وقد كان أبو العباس أحمد ابن محمد بن الفرات في خلافته عبيد الله بن سليمان على الأمور عمل ديوانا سماه ديوان الدار ، وجمع إليه سائر الأعمال ودبره بنفسه وكتابه » .

توفى الوزير عبيد الله بن سليمان في سنة ٢٨٨ ، وبقى ابنا الفرات محتفظين بمكانيهما في خدمة الدولة العباسية ، أبو العباس على رأس ديوان الدار ، أهم الدواوين في ذلك الوقت ، وأخوه أبو الحسن على نائبا عنه في الديوان المذكور .

وفي السنة التالية توفى الخليفة المعتضد بالله ، وخلفه ابنه المكتفى بالله ، أما ابنا الفرات فقد احتفظا بموقعيهما البارزين في خدمة الدولة العباسية ، ثم توفى أبو العباس أحمد بن الفرات فاتفق رأي الخليفة المكتفي بالله ووزيره القاسم بن عبيد الله ، وكان متوليا للمنصب منذ وفاة أبيه في سنة ٢٨٨ — اتفق رأي الاثنين على إسناد الأعمال التي كان يتولاها أبو العباس إلى أخيه أبي الحسن على [٢] .

وهكذا ، وبعد وفاة الأخ الأكبر حوالي سنة ٢٩٠ ، أخذت الأضواء تتركز على أبي الحسن بن الفرات ، الذي ظل على رأس الديوان ، الذي كان يتولاه ، سواء في أيام الوزير القاسم بن عبيد الله الذي توفى في سنة ٢٩١ أم في أيام الوزير التالي العباس بن الحسن ، وذلك حتى وافت المنية الخليفة المكتفي بالله في ذى القعدة سنة ٢٩٥ .

* * *

(١) المصدر السابق ص ١٤٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٩ .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن أبا الحسن بن الفرات قد مكث في موقعه الوظيفي الهام في قمة الحكم في الدولة العباسية حتى نهاية عهد المكتفي بالله ، وهي فترة ليست بالقصيرة ، وأنه حتى آنذاك كان قد عاصر اتنين من أهم خلفاء الدولة العباسية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وأنه عمل مع أربعة من مشاهير وزراء هذه الدولة . وأمر طبيعي أن أبا الحسن بن الفرات من خلال موقعه ، وبهذا الرصيد الضخم من التجارب قد اكتسب خبرة كبيرة وتعرف على كثير من التيارات المختلفة والأساليب المتنوعة في إدارة دفة الحكم في الدولة العباسية .

وقد تبلورت خبرات أبي الحسن بن الفرات وتجاربه في تلك النصيحة التي أزجاها إلى الوزير العباس بن الحسن بخصوص الشخص الذي يرشح للخلافة بعد وفاة المكتفي بالله ، وهي النصيحة التي عبر عنها في قوله[1] : « تقلد جعفر بن المعتضد ، فإنه صبي لايدري أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب ، فكيف أن يجعل خليفة ، ويملك الأعمال والأموال ، وتدبير النواحي والرجال ! ، ويكون الخليفة بالإسم وأنت هو على الحقيقة ، وإلي أن يكبر (تكون) قد انغرست محبتك في صدره ، وحصلت محصل المعتضد في نفسه » . ولما تساءل العباس بن الحسن: كيف يجوز أن يبايع الناس صبيا أو يقيموه إماما ؟ قال ابن الفرات [2] « أما الجواز فمتى اعتقدت أنت أو نحن بإمامة البالغين من هؤلاء القوم ؟ ! » .

ومن النظرة الفاحصة إلى نصيحة ابن الفرات هذه يرى الدارس أنها تعكس في المرتبة الأولى تطلعاته هو ، وتعبر عن آماله البعيدة ، آماله في أن يكون هو صاحب الكلمة العليا في شئون الدولة العباسية ، وإذا عدنا بالذاكرة إلى أولئك الذين سبق لهم أن جعلوا من أنفسهم مراكز ضاغطة للقوة ، أو شكلوا دولة في داخل الدولة العباسية ، من أمثال البرامكة وآل سهل فإنا نجدهم لم يجاوزوا ماقاله ابن الفرات في عبارته : ويكون الخليفة بالإسم ، وأنت هو على الحقيقة .

(١) المصدر السابق ص ١٣١ – ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق .

وإذا أضفنا إلى ذلك فقدان أساس الولاء بين ابن الفرات من ناحية وخلفاء الدولة العباسية من ناحية ثانية ، وأعني به الانتماء إلى مذهب واحد ، لأمكننا أن نقول بوجود أكثر من عامل ساعد ابن الفرات على التطلع لأن يشكل واحدا من مراكز القوة داخل الدولة العباسية .

* * *

كان أبو الحسن بن الفرات يعي جيداً مدى النفوذ الكبير الذي تمتع به ثلاثة من الوزراء الذين عاصرهم وعمل معهم إبان عهد المكتفي بالله ، وهم عبيدالله بن سليمان وابنه القاسم ثم العباس بن الحسن ، يقول المسعودي عن المكتفي بالله : « وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه ، ثم غلب عليه بعد وفاة القاسم وزيره العباس بن الحسن وفاتك » . أما بالنسبة للعباس بن الحسن فيكفي أنه هو الذي تبنى فكرة البيعة بالخلافة لجعفر بن المعتضد ، ثم تبنى فكرة تنحيته ، والإتيان بآخر بدلا منه ، كما سبق أن تبين لنا في مناسبة سابقة ، هذا ، على حين أن الظروف التي تولى فيها ابن الفرات وزارة المقتدر بالله للمرة الأولى كانت بالنسبة للوزير أفضل بكثير من الظروف التي عمل فيها كل من الوزراء السابقين ، بل وأفضل أيضاً من الظروف التي عمل فيها هو في كل من الوزارتين التاليتين .

نعم ، فالخليفة صغير السن ، ولا توحي شخصيته بمعالم النجابة في المستقبل ، وتدبر أمر الخليفة السيدة أمه ، وهى قليلة الخبرة ولا تجارب لها في شئون الحكم والدولة ، وعلى الجانب الآخر كان ابن الفرات رجلا ذا تجربة غنية ، وهو فوق ذلك كان ينظر إليه من المقتدر ووالدته على أنه في منزلة والد الخليفة ، وأيضا صاحب الفضل في التطورات التي أتت بالمقتدر إلى الخلافة ، وفي ضوء هذه الاعتبارات بدأ ابن الفرات وزارته هذه بداية قوية للغاية ، ويحسن بنا هنا أن نستأنس بنصين ، أولهما لمسكويه ، وثانيهما للصابي ؛ يقول الأول[1] : « ولما استقر أمر المقتدر

---

(١) تجارب الأمم حـ١ ص ١٣ .

بالله في الخلافة فوض الأمور إلى أبي الحسن بن الفرات ، فدبرها أبوالحسن كما يدبرها الخلفاء ، وتفرد المقتدر على لذاته متوفرا ، واحتشم الرجال ، واطرح الجلساء والمغنين ، وعاشر النساء فغلب على الدولة الحرم والخدم ، فما زال أبوالحسن ينفق الأموال من بيت مال الخاصة ويبذر تبذيرا مفرطا إلى أن أتلفها » .

أما الصابي فإنه يقول[1] : « فإذا انصرفوا (أي انصرف الناس وقادة الجيش من مجلس ابن الفرات) أمرت السيدة بأن يعدل بأبي الحسن إلى حجرة فيجلس فيها ، ويخرج المقتدر فيقوم إليه فيقبل يده ورأسه ، ثم يقعد ويقعده في حجرة كما يفعل الناس بأولادهم ، وتقول له السيدة من وراء الباب : هذا يا أبا الحسن ولدك ، وأنت قلدته الخلافة أولا وثانيا ، فيقول ابن الفرات : هذا مولاى وإمامي ورب نعمتي ، وابن مولاي وإمامي » ويضيف الصابي : « وبقى على ذلك مدة وزارته الأولى ، وتمكن أبو الحسن من الخزائن والأموال ، وفعل ماشاء وأراد » .

ومن خلال هذين النصين يتضح للباحث أن بداية ابن الفرات في وزارة المقتدر بالله قريبة الشبه ببداية وزارة يحي بن خالد البرمكي للخيفة هارون الرشيد ، فكل من الخليفتين كان يراد إبعاده عن الخلافة ، وكل من الوزيرين كان له دوره ، مع اختلاف المستويات ، في الإتيان بصاحبه إلى الخلافة ، فلا غرابة أن يعتقد كل من الخليفتين أنه مدين بمنصبه لوزيره ، ومن ثم فإن وزارة كل من الرجلين كانت وزارة تفويض ، بينما انصرف كل من الخليفتين إلى اهتماماته الخاصة ، مع استغراق المقتدر في اهتماماته الخاصة إلى أبعد الحدود ، ونتيجة لذلك استبد الرجلان بإدارة الدولة استبدادا فاق حدود التفويض بكثير ، وفي ظل هذا الاستبداد عمل كل من الرجلين على تقوية مركزه في مقابل السلطة الشرعية ، وأهم دعائم هذه التقوية هو الإثراء الذي لم يكن له أن يتم إلا على حساب الدولة .

ومن خلال النص الذي قدمه مسكويه تبرز للباحث مفارقة مثيرة ، فابن

(١) الوزراء ص ١٣٢ - ١٣٣ .

الفرات الذي سبق له أن قام بدور إيجابي في التغلب على الأزمة الاقتصادية التي كانت تواجه الدولة العباسية في أوائل عهد المعتضد بالله هو نفسه الذي يقوم بتبديد ثروة الدولة ويذهب بالقسم الأكبر من الفائض الذي آل إليها مع بداية عهد المقتدر بالله ، وهو فائض كبير يكاد يصل إلى خمسة عشر ألف ألف دينار [1] . فهل يعود هذا التبديد إلى جهل من ابن الفرات بقيمة المال ، أم إلى عجز منه عن تدبير أمور الدولة ؟ إن الباحث لايطمئن إلى هذا التبرير أو ذاك ؛ فابن الفرات يعرف جيداً قيمة المال ودوره الحاسم في تثبيت أركان الدولة ، كما أن تجربة ابن الفرات الطويلة وخبرته العملية تؤكدان أنه في سنة ٢٩٦ ومابعدها صار أكثر كفاءة ومقدرة منه في سنة ٢٧٩ ، والأقرب إلى القبول في تفسير هذه المفارقة أن ابن الفرات بدد قسما كبيرا من ثروة الدولة العباسية عن عمد ، فقد ذهب قدر لايستهان به من الثروة المبددة إلى ابن الفرات نفسه ، كما ذهب قسم آخر إلى المقربين من هذا الوزير .

ويقدم لنا الصابي أكثر من خبر عن ابن الفرات واستغلاله مال الدولة لصالحه الخاص ، فقد ذكر عنه أنه أخذ أو سرق في بعض الأيام الأولى من وزارته الأولى مبلغ سبعمائة ألف دينار [2] ، وأن دخل ابن الفرات حينما أسندت إليه الوزارة الأولى كان حوالي مائتي ألف دينار ، من ضياعه الخاصة ، وأن هذا الدخل قد تضاعف أربع مرات بعد عامين فقط ، وذلك كما يقول أحد معاصريه « بما استصفاه واجتذبه من الأملاك والضياع [3] » .

وامتدت يد ابن الفرات إلى بيت مال الخاصة ، والذي كانت توجد به ثروة الدولة . وأخذ منه ملايين الدنانير ، وقد وجدت مقادير ضخمة من هذه الأموال

---

(١) مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ٢٣٨ ؛ وللمزيد عن ثروة الدولة العباسية في بداية عهد المقتدر بالله اقرأ الصابي الوزراء ص ١٥٧ — ١٥٨ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم حـ٦ ص ٦٧ ؛ ابن خلدون حـ٣ ص ٧٥٣ .

(٢) الوزراء ص ١٣٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٧ .

المأخوذة ضمن الودائع الخاصة بابن الفرات ، ويقول عنه واحد من معاصريه [1] : « وابن الفرات يحتال لنفسه في أمثال ذلك حتى قيل إنه أخذ من بيت مال القلعة (هونفسه بيت مال الخاصة) ألف ألف دينار » .

كان ابن الفرات يختلس أموال الدولة ، أما في أي الميادين كان يستخدمها ، فأمر طبيعي أنه كان يوظفها في خدمة مصالحه الخاصة ، وفي مقدمة هذه المصالح دعم وتقوية مركزه في الدولة العباسية ، ومن السبل المؤدية إلى ذلك اصطناع الرجال واكتساب الأنصار ، فقد كان في أثناء وزارته الأولى يجرى على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم[2] . ومن بين الأنصار والأتباع كان ابن الفرات يولى الشعراء اهتماما خاصا ، فقد كان يطلق لهم كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسما لهم[3] .

هذا ما كان ابن الفرات يفعله بمال الدولة ، كان يبذه بإفراط ، وفي داخل هذا التبذير كان يحظى هو بنصيب الأسد ، وبمال الدولة اشترى ابن الفرات ولاء الكثيرين ، ومن بينهم الشعراء . هذا من ناحية ، وعلى الناحية الأخرى من الصورة يبدو ابن الفرات وكأنه الرجل الحريص إلى أبعد الحدود على ثروة الدولة ، فقد ذكر أن الخليفة المقتدر طلب منه في وزارته الثانية شيئا من المال لبعض مصالحه « فمنعه منه واعتل عليه فيه »[4] .

واستبداد ابن الفرات بثروة الدولة ، وتوجيهها الوجهة التي تخدم أغراضه ومصالحه الشخصية ، واصطناع الأنصار وخاصة الشعراء ، يقدم للباحث أحد العناصر القوية من عناصر التشابه بين ابن الفرات من ناحية ، وأسرة البرامكة من ناحية ثانية ، وهذا مع شيء من الاختلاف في الظروف والتوقيت .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٧ – ١٥٨ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦١ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٨ – ٣٩ .

هذا هو الوزير أبوعلي الحسن بن محمد بن الفرات ، أخطر وزراء عهد المقتدر بالله من الزاوية التي نعالجها هنا ، زاوية مراكز القوى في ذلك العهد ، وقد اتضحت لنا الخلفية التاريخية لهذا الوزير ، كما اتضحت لنا أيضاً بعض الأساليب التي استخدمها من أجل تنمية قوته إلى جانب ، أو في مواجهة ، القوى الأخرى التي كانت تحكم آنذاك الدولة العباسية .

٤ ــ مركز القوة العسكري :

قبل مجيء المقتدر بالله إلى الخلافة بعشرات السنين . والجيش العباسي ، وعلى رأسه قادته ، يشكل مركزا للقوة لايمكن تجاهله في معالجة تاريخ الدولة العباسية ، بل إنه جاءت فترة على الدولة العباسية رسم فيها قادة الجيش العباسي الخط الأساسي لتاريخها ، تلك هي الفترة التي بدأت مع نهاية عهد المتوكل على الله ، وانتهت في السنوات الأخيرة من عهد المعتمد على الله .

صحيح أن قادة الجيش العباسي قد تضاءل إلى حد كبير دورهم في رسم سياسة الدولة العباسية في المرحلة الأخيرة من عهد المعتمد على الله ، غير أنهم سرعان ماعادوا إلى مكانهم البارز من جديد ، وها هو ذا أحد العسكريين بتألق نجمة بقوة في عهد المعتضد بالله ، إنه القائد بدر بن خير الذي يقول عنه المسعودي[١] : « وكان صاحب المملكة والقيم بأمر الخلافة بدر مولاه ، وإليه جميع المعارف في جميع الآفاق ، وإليه أمر الجيش وسائر القواد » .

ومع مرور السنين تزايدت قوة القائد بدر إلى حد أنه أصبح يشكل في أوائل عهد المكتفي بالله خطرا كبيرا على الخليفة ونفوذه ، ومن ثم فقد عمل الخليفة بمساعدة وزيره القاسم بن عبيد الله على التخلص من بدر ، وقد كللت جهودهما بالنجاح ، ويذكر عن المكتفي بالله أنه قال بعد التخلص من بدر [٢] : « الآن ذقت طعم الحياة ولذة الخلافة » .

(١) مروج الذهب حـ٤ ص ١٤٣ — ١٤٤ .
(٢) المصدر السابق حـ٤ ص ١٨٨ .

وقول المكتفي هذا يذكرنا بقول خليفة سابق ، هو المعتز بالله ، فقد ذكر عنه أنه قال : « لا أزال على هذه الحالة (أي عدم خلع سلاحه لا في ليل ولا في نهار) حتى أعلم لبغا رأس أو رأسه لي » وكان يقول أيضاً « إني لأخاف أن ينزل على بغا من السماء أو يخرج على من الأرض » ، وبغا[1] هذا هو كبير الأتراك ، وكان الأتراك آنذاك يشكلون مركزاً للقوة مناوئاً للخليفة أو السلطة الشرعية .

كما يذكرنا قول المكتفي بالله أيضاً بقول قاله جده الأكبر أبو جعفر المنصور عقب مقتل أبي مسلم الخراساني لولي عهده عيسى بن موسى : « وهل كان لكم ملك أو سلطان ، أو أمر أونهي مع أبي مسلم ! »[2] .

على أية حال فإن نجاح المكتف بالله في التخلص من بدر ، قائد الجيش ، يعني أنه نجح في تحرير السلطة الشرعية من براثن أحد مراكز القوة العسكرية ، كما يعني أيضاً أن الساحة قد غدت شاغرة أمام مغامر آخر من بين القادة العسكريين من أجل تشكيل مركز جديد للقوة العسكرية ، وكان ذلك القائد هو مؤنس الخادم .

* * *

بدأ مؤنس من أولى درجات السلم ، فقد كان واحدا من خدم الموفق ، وسجل التاريخ لمؤنس في هذه الفترة المبكرة أنه قد لعب دورا في جعل أبي العباس أحمد خلفا لأبيه الموفق ، ووليا لعهد عمه المعتمد على الله ، وبالتالي خليفة الدولة العباسية تحت لقب المعتضد بالله[3] . ومن الطبيعي والحالة هذه أن يكون مؤنس واحدا من المقربين إلى الخليفة المعتضد بالله ، وقد ظل مؤنس محتفظا بمكانته هذه حتى وافت المنية الخليفة العباسي[4] .

وعلى امتداد عهد المكتفي بالله كانت مكانة مؤنس تزداد مع الأيام رسوخا ،

---

(١) المصدر السابق حـ٤ ص ٩١ — ٩٢ .
(٢) الطبرى حـ٧ ص ٤٩٢ ، ابن الأثير حـ٥ ص ٤٧٧ ..
(٣) المسعودي ، مروج الذهب حـ٤ ص ١٣٩ — ١٤٠ .
(٤) المصدر السابق حـ٤ ص ١٨٥ ؛ الصابي ، الوزراء ص ٢٧ .

وقوته تزداد انتشارا حتى صار مؤنس في أواخر عهد المكتفي بالله واحدا من الرجال القلائل الذين يشتركون في رسم المسار الذي تتحرك فيه الدولة العباسية ، ويذكر لمؤنس أنه كان واحدا ممن حبذوا تنصيب جعفر بن المعتضد بالله خليفة ، بل ولعب دوراً مباشراً في جعل هذا الترشيح حقيقة واقعة [1] .

أسندت الخلافة العباسية إلى المقتدر بالله عقب وفاة أخيه المكتفي في ذي القعدة سنة ٢٩٥ ، ولم تكد تمضي شهور أربعة حتى حدث الانقلاب الذي جاء بعبد الله بن المعتز إلى الخلافة ، غير أن أمر عبد الله بن المعتز لم يعمر سوى يوم واحد ، وعاد المقتدر بالله إلى الخلافة من جديد . وعلى الرغم من أن القسم الأكبر من رجالات الدولة العباسية كانوا قد انحازوا إلى عبد الله بن المعتز أو باركوا خلافته فإنه قد أطيح به بفضل قلة من الرجال بقوا على ولائهم للمقتدر بالله ؛ يقول صاحب تجارب الأمم [2] : « ولم يكن بقي من رؤساء القواد غير مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال والحاشية » وبفضل هذه القلة من القواد ومن عمل معهم من أتباعهم فشلت حركة عبد الله بن المعتز ، وأعيد المقتدر بالله إلى منصبه من جديد .

ومن هذا يتبين لنا أن مؤنسا الخادم ، وهو واحد من القادة البارزين آنذاك ، قد راهن على ورقة المقتدر بالله ، وبمعنى أوسع : ورقة أبناء المعتضد بالله ، وقد كسب في رهانه ، وهذا يعني أن المستقبل قد أصبح عريضا ومشرقا أمام هذا القائد .

بعد القضاء على حركة عبد الله بن المعتز أسندت شرطة بغداد بجانبيها إلى مؤنس [3] ثم بعد حوالي عامين ، وفي سنة ٢٩٨ أسندت إليه قيادة الجيش [4] ، وبهذا أصبح مؤنس على رأس أحد مراكز القوة الثلاثة ، مركز القوة العسكري ، أما المركزان الآخران فهما السلطة الشرعية ، أو الخلافة ، وعلى قمتها الخليفة المقتدر بالله ، ومركز القوة السياسي ، أو الوزارة ، وكان يتولاها آنذاك الوزير ابن الفرات .

---

(١) الصابي ، الوزراء ص ١٣٢ .
(٢) حـ١ ص ٦ ؛ ويوجد لدي ابن الأثير نص شبيه بهذا النص (حـ٨ ص ١٥) .
(٣) الصابي ، الوزراء ص ٢٨ ؛ عريب بن سعد ، الصلة ص ٢٩ .
(٤) الهمداني ، التكملة حـ١ ص ٩ .

وبالاضافة إلى قيادة الجش التي مكنت القائد مؤنس من التدخل المباشر في شئون الدولة قلد هذا القائد في سنة ٣٠٠هـ الحرمين والثغور[١] ، وفي العام التالي خلع على أبي العباس بن المقتدر بالله[٢] ، وقلد أعمال مصر والمغرب ، واستخلف له على مصر مؤنس الخادم[٣] .

وفي سنة ٣٠٤ سار مؤنس إلى بلاد الروم لغزو الصائفة ، وفي طريقه أسند الحكم في عدة مناطق إلى عدد من رجاله ، منهم سبك المفلحي الذي قلده حكم بازبدى وقردى ، وقلد عثمان العنزي مدينة بلدا وباعيناثا وسنجار ، وقلد وصيفا البكتمرى باقي بلاد ربيعة ، ولما عاد مؤنس من سفرته هذه التي فتح فيها حصونا كثيرة من الروم أكرمه الخليفة المقتدر وخلع عليه[٤] . وحينما كان مؤنس بآذربيجان بعد انتصاره على يوسف بن أبي الساج قلد على بن وهسوذان أعمال الري ودنباوند وقزوين وأبهر ، وقلد أصبهان وتم وقاشان وساوه لأحمد بن على بن صعلوك[٥] ، ولما عاد مؤنس إلى العاصمة العباسية خلع عليه من قبل الخليفة العباسي وطوق وسور ، كما خلع على جماعة من قواده[٦] .

ومن هذا السرد العددي يتضح لنا النفوذ الواسع والصلاحيات الكبيرة والمكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها مؤنس حوالي سنة ٣٠٥ ؛ فهو قائد الجيش وكثير من الولاة في الأقاليم الشمالية الشرقية تلقوا تعيينهم من قبله ، وهو خليفة أبي العباس ابن المقتدر على حكم مصر ، وإليه أيضا أسند حكم الحرمين — إنها حقا صلاحيات تفوق بكثير صلاحيات أي رجل آخر في الدولة العباسية إبان عهد المقتدر بالله .

---

(١) ابن الأثير حـ٨ ص ٧٥ .
(٢) كان عمر أبي العباس آنذاك أربعة أعوام ، وأبو العباس هذا هو الذي تولى الخلافة العباسية فيما بعد تحت لقب الراضي بالله .
(٣) مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ٣٢ ؛ ابن الأثير حـ٨ ص ٧٦ .
(٤) ابن الأثير حـ٨ ص ١٠٦ .
(٥) المصدر السابق حـ٨ ص ١٠٢ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ٥٠ — ٥١ .
(٦) مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ٥٠ .

٥ ـ العلاقات بين هذه القوى :

هذه هي القوى الثلاث التي كانت تتقاسم أو تتنازع فيما بينها النفوذ والسلطان في الدولة العباسية ؛ السلطة الشرعية ، ومركز القوة السياسي ، ومركز القوة العسكري ، وكل من هذه القوى في ذاتها تشكل واحد من الخطوط التي ترسم أحد الأبعاد السياسية في تاريخ الدولة العباسية ، أما التاريخ السياسي لهذه الدولة فإنه من الممكن أن يعالج من خلال نقطة واحدة تربط بين هذه القوى الثلاث ، تلك هي نقطة العلاقات .

ونرجع إلى بداية عهد المقتدر بالله بعد حركة ابن المعتز ، فنجد أن العلاقات كانت طيبة للغاية بين السلطة الشرعية من ناحية وكل من ابن الفرات ومؤنس الخادم من ناحية ثانية ، كما أنها كانت بعيدة عن التزاحم فيما بين الرجلين الأخيرين . ويعود هذا المستوى من العلاقات إلى أمر جوهري هو المصلحة المشتركة ، أو المتبادلة ؛ فالسلطة الشرعية كانت في حاجة إلى وزير كابن الفرات يعمل على تثبيت أركانها ، وأيضا في حاجة إلى مؤنس في موقعه في الشرطة أو الجيش لحمايتها والدفاع عنها ، وفي الوقت نفسه فإنها كانت فرصة أمام كل من ابن الفرات ومؤنس لتحقيق مجد ذاتي في ظل خليفة صغير السن مثل المقتدر بالله .

وفي ظل هذا المستوى من العلاقات أسندت قيادة الجيش إلى مؤنس في سنة ٢٩٨ ، وفي ظلها أيضا اتطلق ابن الفرات في إدارة شئون الدولة بلا قيود أو حدود ، ولعل ابن الفرات كان يرى أنه سيبقى في منصبه حتى توافيه منيته ، تماما كما حدث بالنسبة للوزراء الثلاثة السابقين ؛ عبيد الله بن سليمان ، والقاسم بن عبيد الله والعباس بن الحسن .

وعلى أية حال ، فقد استمرت العلاقات على مستواها السابق حتى شهر ذى الحجةسنة٢٩٩ ، التاريخ الذي عزل فيه ابن الفرات من وزارته الأولى ، وكان السبب الأساسي في عزله هو تقاقم الأزمة الاقتصادية ، التفاقم الذي تجاوز بكثير إمكانيات

الوزير وخبراته السابقة ، وقد وجد أعداؤه في ذلك سبباً للإطاحه به والوقيعة فيه[1] .

في ذى الحجة سنة ٣٠٤ تولى ابن الفرات وزارته الثانية ، وذلك بعد غيبة أعوام خمسة ، حدث فيها اختلال في التوازن بين مركز القوة السياسي ومركز القوة العسكري ، ولذا فإن واحدة من المهام الرئيسة التي حاول معالجتها هي إعادة هذا التوازن إلى سابق عهده ، ومن الوسائل التي استخدمها وصولا إلى هذه الغاية إسناد رياسة عدد من الدواوين إلى ابنه وابن أخيه وغيرهما من الموثوق إخلاصهم له[2] ، وإلى جانب ذلك تصدى ابن الفرات لأولئك الرجال الذين يمكن القول بأنهم كانوا من أتباع مؤنس في الحاضرة العباسية ، ومن بينهم نصر الحاجب وأبو القاسم بن الحواري وشفيع اللؤلؤي ، فصرفهم عن الكثير من أعمالهم[3] .

وفي إطار التزاحم بين مركز القوة السياسي ومركز القوة العسكر ي أخرج ابن الفرات من وزارته الثانية ، وهذا انتصار لمؤنس ، وهو غائب عن الحاضرة العباسية ، ولكن رجاله في قصر الخلافة ، وعلى رأسهم نصر الحاجب ، وقفوا لابن الفرات بالمرصاد وأخرجوه من الوزارة ، وهذا يعني أن محاولات الوزير الهادفة إلى إعادة التوازن بين السلطتين قد باءت بالإخفاق ، مما يؤكد تزايد نفوذ مؤنس ورجاله بشكل كبير .

تقلد ابن الفرات الوزارة الثالثة في أواخر ربيع الآخر سنة ٣١١ ، وفي هذه المرة أراد ابن الفرات تصفية العناصر المناوئة له ، أي تصفية مؤنس ورجاله ؛ ونجح بالفعل في القضاء على أبي القاسم بن الحواري ، كما تخلص أيضاً من حامد بن العباس[4] ، حقق ابن الفرات هذه الانتصارات بينما كان مؤنس بعيدا عن الحاضرة العباسية ، فلما عاد مؤنس تحدث إلى المقتدر بالله منكرا ما فعله الوزير ، وفي الوقت

---

(١) الصابي ، الوزراء ص ٣٤ .
(٢) أنظر هامش تجارب الأمم حـ١ ص ٤١ المتقول عن كتاب العيون .
(٣) مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ٥٦ .
(٤) المصدر السابق حـ١ ص ٩١ – ٩٣ ، ١١٣ – ١١٦ ؛ الصابي ، الوزراء ص ٤٥ – ٤٧ .

نفسه لم يقف ابن الفرات مكتوف اليدين ، بل عمل على إبعاد مؤنس عن بغداد ، وفعلا كللت خطة الوزير بالنجاح[1] .

بعد إبعاد مؤنس التفت ابن الفرات إلى نصر الحاجب وشفيع اللؤلؤي ، وبينما كان ابن الفرات منهمكا في معركته هذه هاجم القرامطة الحجاج ، وفي حضرة الخليفة المقتدر حمل نصر الحاجب ابن الفرات المسئولية ، وكان من جملة ماقاله له[2] . « تقول أي شيء الرأي ، بعد أن زعزعت أركان الدولة ، وعرضتها للزوال ، في الباطن بالميل مع كل عدو يظهر ومكاتبته ومهادنته ، وفي الظاهر بإبعادك مؤنسا ومن معه إلى الرقة ، وهم سيوف الدولة ، فمن يدفع الآن هذا الرجل ؟ ! » .

طلب نصر الحاجب من المقتدر بالله استدعاء مؤنس ، وبعودة هذا القائد إلى بغداد ازداد ابن الفرات ضعفا ، وطرد من الوزارة ، ومن ثم عذب هو وابنه المحسن حتى الموت[3] .

بمقتل ابن الفرات انتهى ما يمكن أن نسميه مركز القوة السياسي ، وإذا كانت هـــذه نتيجة مباشرة للصراع بين الجانبين ، فإنه أيضا كانت توجد نتائج بعيدة لعل من أهمها إضعاف السلطة الشرعية في مواجهة مركز القوة العسكري الذي استفحل خطره إلى حد لم يعد من الممكن معه مقاومته أو السيطرة عليه .

* * *

كان المقتدر في سنة ٣١١ قد ناهز الثلاثين من عمره وأراد تبعا لذلك أن يمارس صلاحيات كخليفة ، غير أن هذه المهمة كانت صعبة للغاية ، وخاصة من خلال

---

(١) مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ١١٥ –١١٦ ؛ ابن الأثير حـ٨ ص ١٤٣ .

(٢) ابن الأثير حـ٨ ص ١٤٨ .

(٣) ابن الأثير حـ٨ ص ١٥١ – ١٥٤ .

الصراع المباشر ، ولذلك لجأ المقتدر في سنة ٣١٥ إلى اعمال الحيلة في التخلص من مؤنس ، غير أن الحيلة انكشفت لمؤنس في الوقت المناسب ، وبالتالي فشلت مخططات المقتدر بالله(١) . واراد الخليفة عزل مؤنس من قيادة الجيش ، وإسنادها إلى هارون ابن غريب الخال ، ولكن مؤنسا ورجاله لم يمكنوا المقتدر من تحقيق هذه الغاية(٢) .

تفجر الموقف بين المقتدر بالله ومؤنس في أواخر سنة ٣١٦ ، وفي أوائل السنة التالية نجح مؤنس في الإطاحة بالخليفة المقتدر ، وجيء إلى المنصب بأخيه محمد بن المعتضد ، ولكن لم يقدر لهذا النجاح الاستمرار ، وذلك لأن الرجالة المصافية ، أوقوات الحرس الخاصة بالخليفة ، نجحت وبعد يومين فقط في إعادة المقتدر بالله إلى المنصب من جديد(٣) .

أعيد المقتدر بالله إلى الخلافة ، ولكنه لم يستطع أن يقوم بعمل حاسم ضد القائد مؤنس ، بل إنه رضخ لكثير من مطالبه ، والتي كانت تستهدف تجريد المقتدر من قواته وأنصاره ، ففي سنة ٣١٨ أخرج الرجالة المصافية من بغداد ، كما تم التخلص أيضاً من السودان(٤) وبضغوط من مؤنس عزل المقتدر بالله ياقوتا عن الحسبة وابن ياقوت عن شرطة بغداد ، وبضغوط من مؤنس أيضاً أسند المقتدر بالله منصب الوزارة إلى أبي القاسم الكلوذاني ، وهو واحد من رجال مؤنس(٥) .

وإذا نظرنا إلى التطورات التي وقعت في الدولة العباسية عقب عودة المقتدر بالله إلى الخلافة في سنة ٣١٧ فإنه من المكن أن نقول عنها : إنها كلها كانت تسير في

---

(١) المصدر السابق حـ٨ ص ١٦٩ — ١٧٠ .
(٢) المصدر السابق حـ٨ ص ١٨٨ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم حـ١ ص ١٨٨ .
(٣) للمزيد عن هذه التطورات اقرأ تجارب الأمم وابن الأثير في حوادث سنتي ٣١٦ ، ٣١٧ .
(٤) ابن الأثير حـ٨ ص ٢١٦ — ٢١٧ .
(٥) المصدر السابق حـ٨ ص ٢٢٤ .

اتجاه واحد ، هو تقوية نفوذ مؤنس ، وفي الوقت نفسه إضعاف مركز المقتدر بالله ، وكان مؤنس هو الذي يفرض التطورات أو يرسمها . ولم يكن في إمكان المقتدر بالله إلا التنفيذ .

على أية حال ، فقد وصلت الأزمة بين الرجلين إلى الذروة في سنة ٣٢٠ ، وقد اتخذت شكل صراع دموي كانت مدينة بغداد ميدانه ، وأسفر هذا الصراع كما كان متوقعاً عن قتل الخليفة المقتدر بالله ، وذلك في أواخر شهر شوال من العام المذكور ، ومن ثم طويت صفحة هذا الخليفة الذي كان عهده متخما بالأحداث والتطورات .

أهم مصادر البحث

١ – ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م .

٢ – الاصفهاني ، أبو الفرج ، الأغاني ، تحقيق إبرا/يم الإبياري ، دار الشعب القاهرة ١٩٧٢ .

٣ – الجهشياري ، محمد بن عبدوس ، كتاب الوزراء والكتاب ، طبعة الحلبي القاهرة ١٩٣٨ م .

٤ – ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن على ، المنتظم ، طبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر أباد ١٣٥٧هـ .

٥ – ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر ، طبعة دار الكتاب ، بيروت ١٩٥٧ .

٦ – خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، طبعة النجف الأشرف ١٩٦٧ .

٧ – الصابي ، هلال بن المحسن :

(أ) الوزراء ، طبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٥٨ .

(ب) رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ١٩٦٤ .

٨ – ابن طباطبا ، محمد بن على ، الفخري في الآداب السلطانية ، مطبعة صبيح – القاهرة ١٩٦٢ .

٩ ـ الطبري ، محمد بن جرير ، التاريخ ، طبعة ذخائر العرب ، دار المعارف القاهرة .

١٠ ـ عريب ، ابن سعد القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ليدن ١٨٩٧ .

١١ ـ المسعودي ، على بن الحسين :

(ا) التنبيه والإشراف ، دار التراث ـ بيروت ، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م .

(ب) مروج الذهب ، دار الأندلس ـ بيروت ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

١٢ ـ مسكويه ، أحمد بن محمد ، تجارب الأمم ، تحقيق آمدروز .

١٣ ـ الهمداني ، محمد بن عبد الملك ، تكملة تاريخ الطبري ، الطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦١ .